العشرين قبل المسيح . وكان قلمهم حينئذٍ يقرب من القلم الذي يستعملهُ اليوم السمرة ويقال له القلم السامريّ ونسبهُ اليهود . والمرّة الثانية في القرن السادس قبل المسيح اذ كانوا في جلاء بابل فتعلموا القلم السرياني الذي كان حينئذٍ دارجًا في بابل وهو الذي يقال له عند الافرنج القلم المربّع ويسميهِ اليهود القلم الاثوري اي الكلدانيّ وبقوا يستعملونهُ الى يومنا هذا

البدو

لجناب رفضلو سليمان افندي البستاني (تابع ما قبلهُ)

وللبدو في الغارات والغزوات عادات انفوها ويستعملون في حروبهم السيف والطبر (القأس) والمزراق وأكثر اعتمادهم على الرماح وقد كثر الآن استعمال البنادق فهم دائمًا بين مهاجم ومدافع. وكأنّ في ذلك حكمة تدفعهم الى حظر النهب والتكاثر اتّكالاً تضيق دونهم ارضهم. فالحليف يُعرَف عندهم بالصديق والعدوُّ بالغوم او الغوميّ فاذا قصدوا الغزو وكان العدو كثيرًا ساروا اليهِ شرذمةً قليلةً والاّ فجماهير كثيرة وهم على كلتا الحالتين يسيرون إما لكسبٍ يأملونهُ واما للثأر يأخذون بهِ . ولهم في الحرب فنون خاصة اتخذوها منذ القديم . فمن ذلك انهم اذا تاقوا الى الغزو واشتاقوا الى السلب ارسلوا السوايير او "الطواريش" وهم الرقباء او الجواسيس فاذا انتهم "العلوم" اي الاخبار بما انسوا منهُ خيرًا ساروا بيت فرسان ومشاة ومراديف وظلّوا في اكثر الاوقات فرقةً واحدةً حتى يبلغوا حيث يقصدون فتتقدم الفرسان وتتخلف عنهم جماعة "المراديف" وهم بعض ركبة الابل يسيرون زوجًا زوجًا على كل بعير وتتبعهم المشاة فاذا تراءى لهم "الزول" عن بُعدٍ قبل ان يفرقوهُ اطلعوا من الفرسان "طليعةً" قليلةً تغير بخيلها وهم يتبعونها خببًا حتى تدنو اليهِ دنوًّا تخفقهُ بهِ وبين الفريقين مرامي ارماح كثيرة فتنحرف "الطليعة" شرقًا او غربًا او جنوبًا او شمالاً على غير الطريق المتخذة . ولكلٍّ من هذه المراكض معانٍ معلومة عندهم وهي التي يدعونها "بالعرض" وعرض الجيوش مأخوذ منها فاذا عرفوهم حُلفاء عرفت الحملة كلها وتدانوا دون ان يتماسوا بضر . والاّ فانهم يتفرّقون فرقًا او يسيرون فرقةً واحدةً حسب اقتضاء الموقف والكثرة ويتشبب القتال بينهم فان لم يظفروا بهم عادوا خاسرين وان ظفروا تولوهم وخلفوا جماعة تسوق ما تصيب من الابل والماشية والفرسان تتبع الفرسان فمن قتلوهُ منهم او اسروهُ او طرحوهُ عن ظهر فرسهِ اخذوا فرسهُ وهو "الطليعة" عندهم يحسبونهُ خير مغنم. فاذا رجعوا على قومهم ظافرين غانمين لاقتهم النساء بالملاهل والاهازيج

وخرج اليهم مَنْ تخلف من قومهم يهنئونهم بالظفر ويصرخون "الحذيّة الحذيّة" (وهي ما يعطيه السالب لصاحبه من السلب) فيعطونهم ولا يخاون وربما اعطى السالب سلبه فاكتفاءً فاعطى شيئًا من سلاحه او ملابسه. والغالب في قسمة السلب ان ياخذ الشيخ او الامير خمس المسلوب كلهِ ويوزّع الباقي للفارس سهمان وللراجل سهم واحد الاّ "الفلائع" فهي لاصحابها. وقد يرجعون مخذولين فتتلقاهم النساء بالشتائم والاقسام ان يرجعوا ويأخذوا بالثار فيرجعون ويقاتلون شرّ قتال حتى يظفروا او يقتلوا وقد ترافقهم النساء ايضًا تنشطهم "تحيّهم" وتضمد جراحهم وتسقيهم الماء وربما قاتلنَ معهم. اما الاسير فلا شرع لهُ فقد يقتلونهُ وقد يطلقونهُ وقد يمسكونهُ حتى يفتدي نفسهُ

والدفاع يختلف عمّا ذكرناهُ اذا التهم "عاوم" دنوّ القوم وانسوا بنفسهم قوّةً لدفعهم قاموا على ما ذكرنا آنفًا وعهدوا الى فريقٍ منهم امر حفظ الحرم والمواشي والبيوت بما فيها واندفعوا للاقاتهِ والاّ فانهم يسارعون الى نزع الاوتاد والرحيل بيوتهم ونسائهم واولادهم ونعمهم ويخلّف فرسانهم ومقاتلوهم للدفاع وفي كل ذلك شرح طويل لا يمكن استيفاؤهُ في هذا المقام

ويحسن بنا بعد ذكر الحروب والغزوات ان نتفكّه بوصف البدويات. فهنّ في البادية اكثر من الرجال عددًا وبالطبع الين جانبًا وارقّ طبعًا ولسنَ مع ذلك دون الرجال نخوةً وشهامةً. يطقنَ التعب وتحمّل المشاق وتجشم المصاعب ويشاطرنَ رجالهنّ كل انواع المتاعب فيقمنَ بكل ادارة بيوتهنّ ويعنّهم حتى في غزواتهم ولهنّ بهم تعلّق شديد. وهنّ مع ذلك يؤثرنَ حياة اخوتهنّ ووالديهنّ على الازواج وبنوهنّ في المقام الاول بخلاف الرجال فاول مقام عندهم لاخوتهم ووالديهم وعلى ذلك يقولون اذا ذهب الولد والمرأة معًا قالوا عوض واما الاخ فلا عوض لهُ. وهنّ اشدّ تعلقًا في البداوة من الرجال ينفرنَ من الحضارة وابيّ نفور وعندهنّ من الاحكام السائرة انهُ اذا طُلبت احدى بناتهم لرجل من الحضر ان تقول "صكّاك باب ما اريدتّه" اي انهُ اذا نام اغلق باب بيتهِ فهو اذًا جبان لا يليق بها. ولهنّ عدا ذلك مهارةٌ وطرقٌ لطيفة في نقد الرجال فمن الشائع ان يقال للفتاة في العجمان ومن جاورهم "وماذا تقولين في الفتى الاسمر خيّال الاشقر قصاص المحامل دفاع الذوابل" فتقول "هذا حامي الذمار وكشّاف العار بروحهِ فداني" ويقال لها "وماذا تقولين في الفتى الاشقر مرخي الضفائب والجبين ازهر" فتقول "هذا حليف بنات بروحي فديتهُ" وهو من باب التهكّم على جبناء الرجال. وعندهنّ الزيّ (او الموضة) على نمطٍ واحدٍ يكاد لا يتغير. فالبنات البكر في اكثر الاوقات يتصصنَ الغرّة او الطرّة ويبرزنَ شعورهنّ ما فوق الجبين الى قرب قمة الرأس. واذا تزوجنَ ارخينها وسترنَ شعورهنّ بالمنديل

وهي علامة فارقة بين البكر والثيب . ويستعملن بلا تكلف اموراً كثيرة لوخطرت ببال البارسيات لعقدن لها مجلساً وصففن لها الايدي واذعنها بصحف الاخبار وما دربن ان البدويات سبقنهن اليها ولم يباهينهن بها والفرق بين المودتين (الزينين) ان تلك نابتة وهذه منقلبة فتراها كل يوم في شأن . فزيّ البدو اذاً حضريٌّ مألوف وزيّ الحضر بدويٌّ مخلوف . فالاردان المتسعة المهلهلة الآن عندنا مستعملة في البادية وكذلك الاردان الضيقة المستعملة الآن ووجه ذلك ان يجمعن بين الطبقتين . هذا في النساء المثريات فيلبسن الثوب الضيق الاردان ويتردين فوقه بكساء متسع الاردان ضافي الحواشي . اما الذيول الطويلة المخصر استعمالها بين بنات النيدن في ملابس العرس او الاثواب البيتية وتعرف عند اكثرهن باسمها الافرنجي "روب دوشمبر" فلها استعمال شائع في كل بادية العرب . وجرُّ الذيل في كلام الشعراء لا يكاد يخلو منه كلامٌ منظوم . وعندهن ايضاً المشدّ المعروف "بالكورساج" فقد اتخذن نوعاً منه يصنع من نسيج من خام فهو اكثر ليناً والطف بنية من مشدّات الحديد والفولاذ ولا يستعمل الاّ قليلاً بحيث لا يضايقهن . ولهنّ نوعٌ آخر منه لتعظيم الصدر في النساء الهضيلات . ويقال مثل ذلك في المرافد المعروفة لدى عامتنا "بالتورنور" اقتداء بالافرنج فلبعضهن اعتناء خاص بها . ومع ان الذوق العصري يغالي بجمالها ويدّعي الاسبقية في استنباطها فهي معروفة في البادية منذ عشرات مئات من السنين تفنن فيها بدو العرب وحضرهم منذ القدم ودعوها العظّامة والمرفد والعجيزة وقالوا فيها غير ذلك . ولكنهم لم يتصلوا بشيء من تفننهم الى اتمامها وترقيتها الى حدّ مقتضيات النمو والارتقاء في الزمن الحالي

وجملة ما يقال ان ملابسهنّ سهلة المنال لا تكلفهنّ مالاً جزيلاً ولا وقتاً طويلاً وهنّ وان تزينّ بالفخر ما عندهنّ رشيقات الحركة لا يلجئهنّ ضغط الملابس الى التكلّف والتضرّر والاستثقال . وللموسرات ونساء الامراء والشيوخ نوعٌ من الوشاح يُعرف "بالهاشي" وهو ثوب طويل الاذيال كثير الاتساع فوق الجسم اردانهُ قصيرة الى ما فوق الساعد ولكنها قد تبلغ في الاتساع ذراعاً فاكثر . وقد يلبسنّ العباءة والزبون (القفطان) ويجذبن الخف الاسود والمخدرات منهنّ يتبرقعنّ خارج الخدر ويسدلن على وجوههنّ المنديل الاسود . ويؤثرنّ في الملابس كثرة الالوان واحسنها الاحمر (وهو ايضاً لون جبة الشيوخ) وقد يجعلن في الثوب الواحد عشرة الوان فاكثر . ويلبسن من الحلى الضخم الثقيل كالخلاخل والحجول الكبيرة يصغنها ذهباً وفضةً كلٌّ على ما وسعته حاله ويعلقن الخزّامات المتسعة بانوفهنّ واكثرها مصوغٌ من الذهب مرصعٌ بالحجارة القليلة الثمن كفصوص الفيروز الصغيرة ولهنّ اقراطٌ طويلةٌ عريضة

قد تبلغ القيراطين طولاً بعرض قيراط واحد . و يصغن الذهب والفضة عقودًا وقلادات طويلة على ضروب شتى ويكثرن في القلادات من النقود المضروبة القديمة كالغازي والمحمودي ينظمنها صفوفًا و يدلينها من الصدر الى الصدر . ولهنّ من انواع التزيُّن الحناء فهي شائعة الاستعمال فيصبغن بها الاكفّ والاصابع والاظافر واخمص الاقدام واصابع الارجل . والخضاب الاحمر على الشفاه . وكحل العيون بالاثمد وقد يزججن حواجبهنّ و يطلين شعورهنّ بالدهن المصفّى ولهنّ ولعٌ خاصٌّ بالوشم يحلين بالصبغة الزرقاء والسوداء جلود ايديهنّ بنقوش مختلفة ويجعلن نقطًا صغيرة في منتصف الجبهة وطرف الانف والذقن وربما وشمن الشفاه السفلى والوجنات والسواعد والاقدام

اما اخلاقهنّ فهي بالجملة حسنة وخير ما يزينهنّ عزة النفس وشدة التعلق بالاهل والازواج وقيامهنّ مقامهم في اكثر الاعمال ولا يقوم الرجال بشيء من اعمالهنّ . فاشتغال البدوي مقصور على الغارات والغزوات والمرأة رفيقة ومعينة له في كثير منها وجميع ما بقي مفروض على المرأة بحيث لو انقطع الرجل مدة من طلب السلب والدفاع لكانت هي ربة البيت مكملة بكل ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية فاعتمادهُ عليها تامٌّ او يكاد يكون واعتمادها عليهِ ناقص . وهي مع ذلك راضية وهو غير راضٍ وذلك امر حتمي في كل هيئة غير عريقة في التمدن

اما الاحكام في البادية فموكولة الى الشيوخ والامراء وهي بكل فروعها وملحقاتها تمثل مبادئ الحكم الفطري . فالقوة لمن غلب وتتبعها السلطة والثروة والنفوذ المطلق . وليس لنا بسط هذا البحث المتسع فنقتصر كل الاقتصار على ما تعلق منهُ بمبحثنا تعلقًا صريحًا . فالبدو منقسمون الى بطون وافخاذ وعشائر وقبائل ولكلٍّ منهم كبيرٌ يحكمهم إما بقوة الارث واما بقوة السيف والحكم عندهم إمارة وشيخة وولاية وهي مسمّيات تجد نفسها لمعنى واحد

فالشيخ والامير والمولى انما هم حكام القبائل والعشائر . وقد مرّ بنا ان البدو هم دائمًا بين عدو وصديق ونزيد الآن ان النضاغن والتصافي قد يبلغان عندهم حد التحالف الفعلي وقد يتطرّفان الى ما وراء ذلك بان تحالف قبائل كثيرة تحت لواء واحد فمن ثمّ يصبح صاحب ذلك اللواء متسلطًا عليهنّ جميعًا ومثال ذلك عرب المنتفق . وقد ينفرد بين جماعة من الشيوخ رجل واحد فيتسلط اما بقوته واما بجزمه واما بدسائسه ومثال ذلك عرب شمر . ولا يفضل عندهم الامير على الشيخ ولا الشيخ على الامير الاّ بنسبة مقامهِ فروّساء[1] نجد امراء ودونهم امراء وشيوخ .

(١) هم آل سعود ومقرهم الرياض قاعدة البلاد وسلطتهم نافذة في بدو نجد وحضرها وكانت الكلمة لهم ايضًا في عمان ومسكت وقسم كبير من بادية العرب اما الآن فلهم الولاية فقط على نفس البلاد بل على قسم منها . فما خرج عن

ورؤساء عنزه[٣] والمنتفق[٣] وشمر[٤] شيوخ ودونهم شيوخ وامراء . اما الرؤساء المعروفون بالموالي فليس منهم احد في بادية العرب وهو لقبٌ اتخذهُ بعض الرؤساء في الغرب ورئيس عرب الحويزة[٥] في العراق العجمي ببلاد فارس

والشيوخ والامراء الحكم المطلق والنفوذ المفرد فسلطتهم اذًا نافذة في كل شيء يقضون بما يشاؤون معتمدين على الشرع المعروف والعرف المشروع وما من شافع لديهم الاَّ ذممهم وما حملت والبدو من حيث الطمع والاذعان جامعون بين الضدين فاذا غلت ايديهم عن التحامل وضاقت بهم الحيل قنعوا باليسير ورضخوا كل الرضوخ وان تبذلوا سبيلاً الى الاستطالة هبوا اليه . ويطلق هذا الحكم على الرفيع منهم والوضيع وهو نتيجة كل سلطة مطلقة ولهذا لم يكن الشيوخ في مأمنٍ من ذلك اقاربهم الاَّ اذا استتبَّ لهم كل الامر . والحكم عندهم وراثي للارشد ولكنهم لا يراعون ذلك الاَّ حيث غلبت قوة الراشد فيهم

وليس لهم قوانين مكتوبة ومجالس معقودة ومع ذلك يقوم العرف احيانًا مقام القانون النافذ فيرجعون بالتقاضي اليهِ فالقتيل مثلاً يقوم اهلهُ واقاربهُ للاخذ بثارهِ وان كان القاتل من عشيرة

بلادهم استقل عنهم وانسلخ عنهم قسم من اطراف البلاد مغازًا الى شمر الجبل واستفحلت الدولة العلية قسمًا كبيرًا ايام ولاية مدحت باشا على بغداد وجعلتهُ متصرفية كبيرة قاعدتها بلدة الاحساء القديمة وهي تشمل كل بلاد الاحساء وقطر والقطيف وما جاورهما من سواحل خليج فارس

(٢) هم اكثر قبائل البدو عدًّا واقلها انتقالاً اكثر اقامتهم في بادية الشام ومنهم فرق كبيرة في كل بادية العرب . ينتمون الى بطون وافخاذ كبيرة لكل فئة منهم شيخ يحكمها فيرجع بعضهم الى حكم شيخهم الاكبر محمد الدوخي ويخرج بعضهم عن طاعتهِ و بعض البطون تجاهر بعدوانهِ . وللدولة العلية نظر خاصٌّ على الشيخ الموما اليهِ فهو داخل في طاعتها ولهُ منها معاش سنوي لقاء خدمةٍ يقوم بها

(٣) يطلق اسم المنتفق على القبائل المجاورة لنهر الفرات ما دون الحلة الى ما بلي مصب الفرات في شط العرب وهو تصحيف قولهم المنفق وقد يقال المنتنك او المنتفج جريًا على لفظهم بجعل القاف جيمًا فارسية كما سيأتي في ذكر اللغة

وقد اتفقت هذه القبائل لوحدة المنزل لا لوحدة المنشا كعرب عنزة فلكل قبيلة رئيس منها وكنَّ جميعًا يعترفنَّ برياسة آل سعدون خصوصًا وان الدولة العلية كانت تنصب دائمًا رجلاً منهم لتولي الرئاسة العامة وقد تعاقب على هذا المنصب في الاعوام الاخيرة منصور باشا الذي جعل بعد ذلك عضوًا في شورى الدولة ثم اخوهُ ناصر باشا فلبث مدة متصرفًا ثم أُقيم واليًا للبصرة ونصب مكانهُ ابنهُ ناجح باشا ثم ابن عمهِ فهد باشا وهو آخر من حكم المنتفق من السعدون اما الآن فيعهد بامر الحكم الى متصرفٍ تنفذهُ الدولة العلية

(٤) قبائل شمر مجتمعة الكلمة اكثر من عنزة وان تكن دونها عدًّا وعزوةً ومقامًا عند العرب وهي جميعها منقادة الى شيخين احدهما محمد بن الرشيد وهو الاصغر رتبةً والانفذ كلمةً و يقيم في جبل شمر في البادية والآخر ابن عبد الكريم و ينزل بقومهِ على ضواطئ دجلة فيما بلي الموصل

(٥) عرب الحويزة وما وليها من بلاد فارس من بقايا القبائل التي سارت بقيادة سعد بن ابي وقاص لفتح بلاد الفرس ككنانة وربيعة ومضر وهم لا يزالون على اخلاقهم ولغتهم العربية الاَّ ان اكثرهم متشيعون

حليفة فيهم الدية توزع على العاقلة (اي على اقارب القاتل) وتدفع لاهل المقتول وان اختلفوا في امرٍ اشكل عليهم ولم يشاؤوا ان يحكموا السيف رفعوا امرهم الى العوارف والعارفة عندهم بمقام القاضي يحكم بما اكتسبهُ بالاختبار ما جرى عليهِ العرب في كل زمن وهو بمقام الفيصل او الفاروق في العهد القديم ولهُ عندهم منزلةٌ كبرى (ستأتي البقية)

الحرّيّة

لجناب رفعتلو اسعد افندي داغر

ما اخضرَّ في دمن الرّبا لي عودُ بل فاح في الاخلاص لاسي عودُ
اني امرءٌ في حكم فكري لم يعش الاَّ ليفعل ما يشا ويريدُ
حكمٌ أراهُ لا يرد مسلَّما ونقيضهُ بنقيضهِ مردودُ
لكنني حذرٌ فعالاً أستحي من ان اقوهُ بها وذاك اكيدُ
واظلُّ امنع مقولي عن أنهُ يُبدي مقالاً ليس فيهِ مفيدُ
لم يدنُ قطُّ في ابتطق ما ارى عنهُ الفؤادَ يشجُّ وهو بعيدُ
وكذاك عيني لم تملْ يوماً الى ما البغض من نفسي اليهِ شديدُ
وصريحُ اقراري بحسن عقيدتي ما شابهُ ريبٌ ولا تعقيدُ
فانا براءٌ بعد هذا القولِ من اخنى يصدّرهُ عليَّ حسودُ
هذي مبادئُ لا تحول وانها عندي لما سأبينهُ تمهيدُ
تمهيد تقريرٍ يحكم لي على الدعوى بهِ منهُ عليهِ شهودُ
وشهودها أنْ ليس فيها منكرٌ لي لا ولا غير الحسود جحودُ
دعوى الهيامِ بغادةِ الحرّيّة السعيدا التي تصبو اليها الغيدُ
هي غادةُ الحسن التي ما شانها قصفٌ ولا زيفٌ بها معهودُ
لا عيبَ فيها بيدَ أنَّ جمالها هذا البديع لدى الجميع فريدُ
واذا بحثتَ وجدتَ انَّ بني الهدى كلٌّ بها رغمَ الخذول عميدُ
ليس الخذول بها سوى الهتاص والباغي الذي معبودهُ نمرودُ
ونظير هذا ذرهُ في طغيانهِ يجري بما لاقتهُ قبلُ ثمودُ
ناهيكَ أنَّ جميع احرار الحجا لعلا سناها المقتفد عبيدُ